www.facebook.com/ZaitonMagazine - zaiton.mag@gmail.com - www.zaitonmag.com
محلية اجتماعية ثقافية نصف شهرية مستقلة السنة الرابعة | 15 آب 2011

زيتون

العدد: 183

برأي سياسييها.. إدلب إلى أين؟

مجلس شورى جرجناز.. سلطة شعبية نافذة

خاص زيتون

في ظل غياب السلطة الضابطة في المحرر بعد إزالة سلطة نظام الأسد، كان هناك تجارب شعبية تنظيمية، لضبط شؤون وإدارة المدن والبلدات في إدلب، لا سيما بعد أن سيطر العسكر على السلطة، وعدم رغبة الأهالي بهذا النوع من السلطة العسكرية.

مجلس شورى جرجناز أحد هذه التجارب الشعبية، حيث انبثق المجلس من الحاضنة الشعبية الثورية، والمهتمة بشؤون المجتمع، ليلعب دوراً بارزاً بتأسيس الإدارة المحلية، المتمثلة بالمجلس المحلي، إضافة للتنسيق والتناغم في العمل بين فصائل العسكر والادارة المحلية للبلدة، وترتيب أمور البلدة العامة من خلال سلطة شعبية ذات صلاحية مسموعة.

وكان أهالي جرجناز قد تداعو في تشرين الثاني ٢٠١٦ لتشكيل لجنة تكون مخولة بمخاطبة الفصائل والجهات المسؤولة عن حفظ الأمن والسلم في البلدة عقب أحداث وجرائم طالت بعض المدنيين، كما تم الاتفاق خلال الاجتماع على تشكيل "مجلس شورى جرجناز" ليكون بمثابة مجلس الإدارة الأعلى في المدينة، ويتمتع بكافة الصلاحيات بما فيها الجانب الأمني.

بدأ المجلس أموره التنظيمية عبر تأسيس منظم وشامل لكل أهالي جرجناز، بحيث تكون كلمته ورأيه ممثلين لكافة الأهالي، وذلك من خلال الخطة التأسيسية له، والتي تحدث عنها لزيتون أحد أعضاء مجلس شورى جرجناز "محمد حسين الدغيم" بقوله: "تم اختيار معيار أولي للشمولية وهو عدد دفاتر العائلة، والتي كانت تبلغ حوالي ٣٨٠٠ دفتراً، وتوصلنا لتمثيل كل ٢٥٠ عائلة بعضو في مجلس الشورى، لينتج لدينا ١٥ عضواً، يمثلون كافة العائلات المسجلة، ليقوم بعدها أعضاء المجلس بانتخاب رئيس له، ليخلص المجلس إلى رئيس و١٤ عضواً".

وكانت آلية انتقاء الـ ١٥ عضواً عبر معايير ثورية وعائلية وأخلاقية إضافة للفاعلية، حيث يحق لكل ٢٥٠ عائلة أن تفوض عضواً ممثلاً عنها، شريطة تحقيقه للمعايير الثورية والأخلاقية، بحسب "الدغيم" والذي أكد أنه لم يتم فرض أي عضو من أعضاء مجلس الشورى، بل كانوا جميعاً ممن وقع عليهم اختيار الأهالي، مشيرا إلى أن هذه الآلية منحت الأهالي هامشا بانتقاء من يمثلهم، إضافة لأنها أعطت العائلات الصغيرة والتي لا يبلغ عدد أبنائها الـ ٢٥ عائلة حقهم بالتمثيل.

دور المجلس وأعماله

وقد لعب مجلس شورى جرجناز دور المنسق العام بين كل مكونات وهيئات الثورة في البلدة مع صلاحية كاملة تؤهله لذلك، إضافة لحل أي خلاف يقع فيها، والتصدي لأي تجاوز يقع ولم تستطع الجهة المسؤولة عن مكافحته.

وعن ذلك قال عضو مجلس شورى جرجناز "حمدو حسين الدغيم" لزيتون: "كان المجلس صمام أمان وصلة الوصل بين كل الهيئات المدنية من جمعيات وفعاليات من جهة، وبين المجلس المحلي من جهة أخرى، كما كان صلة الوصل بين المجلس المحلي والمجلس العسكري، وبين المجلسين والمدنيين، وبين جرجناز والقرى التابعة لها"، مضيفاً:

"كما كان مجلس شورى جرجناز الجهة المتابعة لأعمال كافة المؤسسات في البلدة، دون التدخل بعمل أي جهة إلا بعد طلبها، وأخذ المجلس دوره في حل القضايا العالقة والخلافات التي تنشب بين بعض الأطراف بين فترة وأخرى، وهو المخول الوحيد في المنطقة لاستخدام القوة في حال استدعى الأمر استخدامها".

ويعمل المجلس على المحافظة على الأماكن العامة بالبلدة، حيث يتابع هذا الأمر باهتمام واسع، ومنع التعدي عليها، ومنع الفصائل من التعرض لأي مدني في البلدة، حتى في حال وجود شكوى بحقه أو قضية ضده، يتوجب على المجلس العسكري توجيه رسالة لمجلس الشورى يبين فيها الشكوى، ويقوم مجلس الشورى بدوره بإحضار المدعى عليه ومتابعة الأمر، بشكل يضمن اطلاع المجلس على قضايا المدنيين مع الفصائل، حرصا منه على حق المدنيين والعسكريين في آن واحد، ودون حدوث أي تجاوز من جهة على أخرى، وعبر المجلس تتساوى الجهات، بحسب عضو مجلس الشورى.

وكان مجلس الشورى قد جدد في بيان مشترك له مع المجلس المحلي ومنظمات المجتمع المدني والحركة الشبابية والمخفر الثوري في البلدة في ١٦ أيلول الماضي، تأكيده على عدم تواجد عسكري أو مدني لأيّ فصيل ضمن الحدود الإدارية للبلدة، وإبعاد الفصائل عن التدخل بالأمور المدنية وتركها لأهالي جرجناز متمثلة بمجلسها المحلي، وإنشاء مكتب شرعي في المجلس المحلي لحل كافة النزاعات، وذلك بعد عدة اجتماعات عقدها المجلس والفعاليات المشاركة في البيان.

وعن دور مجلس الشورى في تشكيل المجلس المحلي، قال رئيس المجلس المحلي في بلدة جرجناز "حسن الدغيم" لزيتون: "كان لمجلس الشورى الدور الأبرز بتشكيل المجلس المحلي، وذلك من خلال تشكيل هيئة ناخبة من أفراد البلدة الفاعلين، والذين يتم اختيارهم وفق معايير الثورية والاهتمام بالشأن العام للبلدة، بالإضافة إلى التمثيل العام لكل العائلات فيها، ليقوم أعضاء الهيئة الناخبة بانتخاب المجلس المحلي من المرشحين له".

وأكد رئيس المجلس المحلي في جرجناز أن مجلس الشورى استطاع أن يكون السلطة الشعبية والتنسيقية، التي تنسق العمل بين الفصائل العسكرية والإدارة المحلية للبلدة.

ويرى الناشط "محمد حسن" من أبناء بلدة جرجناز أن "أكبر دور لمجلس الشورى وأفضلها هو حل الخلافات التي تقع في البلدة فيما بين الأطراف المختلفة المدنية والعسكرية".

كما كان لمجلس شورى جرجناز مواقف من عدة قضايا في المحافظة، حيث طالب المجلس في بيان له صدر في ٢٢ كانون الأول ٢٠١٧ حكومة الإنقاذ بعدم التدخل بجامعة حلب الحرة، حاملاً الجهات المسؤولة والهيئات العاملة العسكرية والسياسية على مراعاة الظروف الدولية والمحلية، والعمل بسياسة الممكن.

إلى ذلك أعلن المجلس في بيان آخر له في ١٨ آذار الماضي، عدم اعترافه بحكومة الإنقاذ، وأصدر قراراً في ٢٨ نيسان الماضي، يقضي بمنع ظاهرة اللثام في البلدة، وذلك لمكافحة عمليات الاغتيال، على خلفية ازدياد الفوضى الأمنية في المحافظة.

في ٢٣ آذار من العام الحالي وبالتزامن مع الحملة العسكرية على ريف إدلب الجنوبي والشرقي، في وقت نزح فيه أهالي جرجناز عن مدينتهم، أعلن المجلس عن انتهاء ولايته دون أن يحدد موعدا لاختيار مجلس جديد، وما يزال منذ ذلك الحين في محاولته لتشكيل مجلس شورى جديد للمدينة.

على الرغم من انتشار مجالس للشورى في عدد كبير من المدن والبلدات في ريف إدلب الجنوبي، يبقى مجلس مدينة جرجناز الأكثر نجاحا بينها، وذلك لتمثيله الحقيقي لرأي الأهالي وتحمله مسؤوليته بكفاءة واضحة.

على وقع الاندماج "الجبهة الوطنية للتحرير".. آمال وهواجس

تيسير المحمد

قبل أيام اندمجت معظم الفصائل العاملة في الشمال السوري تحت مسمى "الجبهة الوطنية للتحرير"، ولا شك أن جمهور الثورة كان ينتظر القيام بهذا الأمر منذ بداية العمل المسلح، وبالذات عندما كانت الظروف المحلية والدولية أفضل من الوضع الراهن بكثير، حيث وصلت في وقت سيطرة المعارضة إلى أكثر من ٧٠٪ من مساحة سوريا، ليأتيَ هذا التوحد اليوم وفي مثل هذه الظروف، ويطرح العديد من الأسئلة حول جديته وحقيقته وإمكانياته.

من المعلوم لدى الجميع أن ما حصل كان تحت الضغط من الضامن التركي لتجنيب المنطقة ما حصل لباقي المناطق إثر هجوم النظام وحلفائه عليها، وتدميرها وإخضاعها لسلطته وسط صمت وتخاذل عربي ودولي، بالإضافة إلى موافقتهم الضمنية على بقاء الأسد ونظامه على رأس السلطة في سوريا، على الأقل في الفترة الحالية والمقبلة.

ولكن حتى لو كان الاندماج حقيقياً وعلى أعلى مستوى، تبقى المعضلة الأكبر "هيئة تحرير الشام"، وسيطرتها على مناطق شاسعة من الشمال السوري، ولا سيما أن الهيئة مصنفة كتنظيم إرهابي، وكانت الذريعة التي استخدمها النظام وحلفائه للهجوم على باقي المناطق السورية وحظي بالدعم والتأييد الدولي بتلك الحجة التي استغلها الجميع.

وبالتأكيد حل هذه الإشكالية سيكون صعباً جداً، وربما يكون الثمن كبيراً، وبشكل خاص إذا كان الحل هو إنهاء الهيئة عسكرياً، وهو أمر غير مستبعد بحسب المعطيات الأولية ورفضها حتى الآن حل نفسها والاندماج مع باقي الفصائل، فضلاً عن المهلة الروسية لتركية -والتي تشارف على الانتهاء-، وذلك بغية إنهاء تواجد تحرير الشام في المنطقة.

طالب الحقوق "عبد الحميد شاهين" من سكان مدينة إدلب قال لزيتون معلقاً على الاندماج: "وماذا ينفع الاندماج اليوم إذا كان قراره من الخارج وبضغط تركي، وكلنا يعلم أن قرار المعركة يحتاج إلى إذن وإلى توافق دولي، فلا جدوى اليوم لمثل هذه الأمور، فالثورة صدر قرار تصفيتها، وكل ما يحدث الآن هو لتحسين شروط التفاوض فقط لا غير، حيث تسعى كل دولة من الفاعلين في الملف السوري إلى تحصيل أكبر قدر ممكن من المكاسب، وذلك من خلال تحريك أدواتها في الداخل، ولكن في نهاية المطاف سيعود الطفل المدلل بشار الأسد ليحكم سوريا، وهم الآن يتذرعون بوجود تنظيم هيئة تحرير الشام، وجميعنا نعلم أن النظام وحلفائه سيطروا على العديد من المناطق التي لم يكن فيها تواجد للنصرة مثل بلدات جنوب دمشق، أو كان وجودها رمزياً بالنسبة لباقي أعداد الفصائل المصنفة من قبل أمريكا بالـ معتدلة، مثل درعا والقنيطرة".

أما "راتب البطل" أحد مقاتلي الجيش الحر قال:

"هجرنا من الغوطة إلى إدلب، وكانت الصورة في ذهننا أننا سنجد جيوشاً منظمة لديها عتاد عسكري نوعيٌ إلى حدٍّ ما مقارنة مع السلاح الذي كان بأيدينا، وسنرى معارك كبيرة وقوية بعد أن كنا نقاتل النظام بأسلحة بدائية في كانتونات صغيرة ومتفرقة، بينما هنا في الشمال مساحات واسعة وشاسعة تستطيع المناورة من خلالها، ولكننا صدمنا بالواقع، ومجموعتنا حتى اللحظة لم تنضم إلى أي فصيل، لعدم ثقتنا بالمشاريع التي تقوم عليها هذه الفصائل وتبعيتها للخارج".

وأضاف "البطل": "العجيب في الأمر أن غالب سكان هذه المناطق يحذرون من العمل مع هذه الفصائل "دير بالك الفصائل هون للتجارة والسلطة بس وهمهم الهيمنة على أكبر قدر ممكن من المُقدرات والمساحات"، فهم لم يتوحدوا ولم يتحركوا عندما كان النظام يقضم المنطقة تلو الأخرى، فما الفائدة من اندماجهم في تشكيل واحد قد يكون هدفه القتال الداخلي لتسهيل دخول النظام لهذه المناطق والسيطرة عليها، خصوصاً أن هذه الفصائل مشاربها مختلفة، فصائل إسلامية وجيش حر وغيرها، وتستطيع أن تتأكد بأن الثقة معدومة فيما بينها إذا نظرت لعمل هذه الفصائل وممارساتها خلال السنوات الماضية، ولو أن هذه الفصائل صادقة في هذا الاندماج كان من الأولى أن تذوب في فصيل واحد، أي لا تبقى في نفس هيكليتها التي كانت عليها قبل الاندماج، وتكون كلها لفصيل واحد كعناصر مع وضع إمكاناتها تحت تصرف قيادة التشكيل الجديد".

من جانبه تساءل الرقيب المنشق "حسن الهاشمي" عن سبب تشاؤم البعض، وتشكيكه باندماج الفصائل الذي تم مؤخراً وقال: "مهما فعلت الفصائل سوف يشكك البعض بها، ويطعنون ولا يعجبهم العجب، والبعض لو رأوا بأم أعينهم الانتصارات من الفصائل سيقولون مؤامرة"، مضيفاً:

"حتى ولو كان هذا التوحد تحت ضغط خارجي فهو شيء جيد، وخطوة مهمة على الطريق الصحيح، فهم يقولون أن هذه الفصائل تبعيتها للخارج وتأتمر بأوامرهم، وأقول على فرض صحة هذا الأمر فهذا يعني أن التشكيل الجديد سيحظى بدعم خارجي، وبمن يدافع عنه وعن مصالحه على الساحة الدولية، وسيكون صوته مسموع، وربما لا يعلم البعض أو يتجاهل صعوبة الوضع والموقف الحالي، وأن هذا الاندماج أفضل ما يمكن القيام به في هذه المرحلة، وعندما نقول تشكيل جيش واحد فهو أمر في غاية التعقيد ويتطلب الكثير من العمل والجهد من جميع الثوار وليس من الفصائل لوحدها، وفي الوقت ذاته لا شك أن على التشكيل الجديد القيام بخطوات سريعة، أهمها إبعاد المفسدين عن مراكز القرار والقيادة، والنظر بشمولية لمصلحة الثورة، والبعد عن التحزبات الفصائلية والمناهج التي تفرق الصفوف".

وبالطبع إن توحيد الصفوف والعمل المنظم مطلب شعبي منذ بداية الثورة السورية، ولكن لابد من الأخذ بعين الاعتبار فشل التجارب السابقة، ومخاوف وهواجس الحاضنة الشعبية، بعد الانتكاسات المريرة التي مرت بها الثورة السورية، وبعد أن أضحى الشمال السوري الملاذ الوحيد لها، وفي حال سقطت هذه المناطق سيكون المسمار الأخير الذي يُدقُّ في نعش الثورة، ولن نجد مكاناً لها حتى في الكتب، لأن المنتصر هو فقط من يكتب التاريخ.

240 مريض بالسل في إدلب.. والأدوية المنتهية الصلاحية تفاقم المرض

في الماضي كان مرض السل وباءً، ولكن سرعان ما غدا مع بدايات القرن الماضي، مرضاً غير مستعص، بعد اكتشاف أنواع مختلفة من الأدويةً لمعالجته.
شهدت سوريا في مرحلة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، حملة كبيرة لمعالجة هذا المرض، ومنذ تلك الفترة، باتت حالات الإصابة به محدودة.

ربيع رزار

اليوم مع تدهور الأوضاع الصحية في سوريا بعد الحرب، وسوء التغذية، أخذ هذا المرض يغزو أجساد السوريين من جديد، وبنسبة عالية.

وتعد محافظة إدلب من أكثر المناطق التي تعاني من هذا المرض اليوم، ورغم محاولات التوعية بأخطار المرض والوقاية الصحية، ومحاولة توفير علاج للمصابين، فإن حالات الوفاة جراء هذا المرض في ازدياد.

ويعزو بعض الأطباء عدم نجاعة حلولهم الطبية، إلى كون الأدوية المستخدمة في بعض المراكز، قد انتهت فاعليتها منذ عدة أشهر، لذلك غالباً ما يؤدي إعطاؤها للمريض في ظل عدم توفر بدائل، إلى تحول مرض السل من مرض مؤقت إلى مرض مزمن صعب المعالجة.

عن أسباب عودة مرض السل وأعراضه يقول الطبيب «زياد سعيد»: «وصل مرض السل إلى مرحلة الكمون في سوريا، وقبل الثورة كنا نادراً ما نواجه حالة مرض بالسل، أما الآن وبسبب الظروف الاجتماعية السيئة كالازدحام في التجمعات والفقر والرطوبة والإجهاد بسبب العمل لساعات طويلة، فقد ارتفعت حالات الإصابة كثيراً بمرض السل، والذي يعد مرضاً جرثومياً سريع العدوى، تسببه العصية السلية، وينتشر عن طريق السعال والعطاس والبلغم، ويترافق بأعراض كثيرة منها: ارتفاع الحرارة والسعال والتعرق الليلي والآلام المفصلية ونقص الوزن وقلة الشهية، كما يترافق أحياناً بالسعال الدموي».

ويضيف «سعيد»: «يبدأ تشخيص المرض في مراكز السل، ويمكن علاجه في المنزل، إلا في بعض الحالات المتقدمة فيجب علاجها في المشافي، ويجب مراقبته أسبوعياً وإعطاءه العلاج، ويحتاج المريض إلى العلاج لفترة من ٦ إلى ٩ أشهر».

تتحمل منظمة الصحة العالمية والمنظمات الأهلية المنتشرة في الداخل السوري مسؤولية انتشار هذا المرض، ويجب وضع برامج لمكافحة هذا المرض، ولن تنفع الجهود الفردية في حل هذه المشكلة لأن المرض ينتشر بشكل كبير. وللوقاية من مرض السل يجب أن لا يتم مشاركة المريض حاجياته الشخصية ويجب عليه وضع كمامة وعزله ما أمكن في المنزل.

ويقول الطبيب «مأمون سيد عيسى» الباحث في الشؤون الطبية في الداخل السوري: «نعاني من مشاكل كبيرة في الداخل السوري لأنه لا توجد دراسات للواقع الصحي، ولا توجد قاعدة معلومات للأمراض الشائعة، وخلال زيارتي لمركز السل في إدلب قالوا إن لديهم ٢٤٠ مريضاً، و ١٥ مريضاً كل شهر، والمشكلة أننا لم نعرف العدد الحقيقي لمرضى السل، بسبب فقدان الأدوية في مركز السل في إدلب، ما يجبر المرضى على مراجعة العيادات الخاصة، أو اللجوء للعلاج في تركيا، والمفروض على المرضى مراجعة المركز كل شهر، كما يجب متابعة أسرة المريض لاحتمال نقل العدوى لهم».

إن قلة التوعية وعدم وجود مراقبة لهؤلاء المرضى هي إحدى الثغرات التي يعاني منها مركز السل في إدلب، ولكن كادر مركز إدلب المكون من طبيبين وعدد من العاملين الصحيين يحاول تجاوز هذه الثغرة، ويبذل جهوده حالياً في توعية الأهالي من هذا المرض وطرق انتشاره، ولكن ضعف الإمكانيات يعيقهم، بحسب «سيد عيسى»، والذي أضاف:

«يوجد في مدينة إدلب مركز للسل، كما يوجد في ريف حلب في بلدة أورم ومارع ويتم إنشاء مركز جديد في عفرين، وهذه المراكز تعاني من نقص في الأدوية وانتهاء فاعليتها، أدوية مرض السل هي خمس أنواع، ولقد لاحظت في مركز إدلب أدوية منتهية الصلاحية منذ عام ٢٠١٦، وهذا ما سيؤدي إلى مشاكل كبيرة، وتحوّل المرض إلى مرحلة المرض المعند، وتصبح الجرثومة مقاومة لهذه الأدوية».

يوجد تقصير كبير من مديريات الصحة التي تتبع لها هذه المراكز، فهي فقيرة مادياً، ولا يوجد لديها القدرة على شراء الأدوية، ومنظمات الصحة العالمية مثل اليونيسيف و WHO لم تهتم بهذا المرض، ولكن منذ عدة أيام قامت منظمة WHO بطرح الموضوع، وهناك احتمال بقيام المنظمة بعمل مشروع لم يحدد موعده بعد، وذلك لمكافحة السل، الباحث في الشؤون الطبية في الداخل السوري.

ويعزو بعض الأطباء عدم نجاعة حلولهم الطبية، إلى كون الأدوية المستخدمة في بعض المراكز، قد انتهت فاعليتها منذ عدة أشهر، لذلك غالباً ما يؤدي إعطاؤها للمريض في ظل عدم توفر بدائل، إلى تحول مرض السل من مرض مؤقت إلى مرض مزمن صعب المعالجة.

وتابع «سيد عيسى» قوله: «مراكز مكافحة السل بحاجة فورية لأدوية لمعالجة المرضى، ريثما يبدأ مشروع منظمة WHO، وكما نعرف مشاريع المنظمات طويلة الأمد، وتأخذ وقت طويل لإنجازها، بينما لم تقدم مؤسسات المعارضة ممثلة بالحكومة المؤقتة والائتلاف الوطني وحكومة الإنقاذ، أي شيء على المستوى الصحي، وكانت المنظمات الطبية هي الفاعلة في هذا المجال».

شيء مؤسف أن يكون لدينا حكومة مؤقتة وائتلاف وطني وحكومة إنقاذ والعديد من المنظمات الطبية، وأن يكون لدينا فقط ٢٤٠ مريضاً، ولا نستطيع تأمين العلاج لهم، وأن يتم إهمال موضوع خطير بهذا الشكل، وفقاً للباحث في الشؤون الطبية في الداخل السوري.

من جانبه قال أحد أطباء مركز السل في إدلب «عبد الرحمن طريفي» عن وضع الأدوية في المركز: «دواء ريفا ودواء ستريبتوميسين انتهت فعاليتهما في الشهر الماضي، أما البيرازون فهو يستعمل رغم انتهائه منذ عام ٢٠١٦، وكذلك الايتامبوتول والايزونازيد انتهت فاعليتهما في ٢٠١٧، ورغم ذلك تقدم هذه الأدوية للمرضى»، مضيفاً:

«المشكلة الكبيرة هي أنه عند إعطاء مريض السل دواء منتهي الفاعلية، لن يشفى مريض السل بل سيتحول إلى مرض سل مزمن تصعب معالجته، والأسوأ من ذلك نشوء جراثيم مقاومة للعلاج ستنتقل عن طريق العدوى لمرضى آخرين، أي أن المريض الجديد سيصبح لديه مرض سل مقاوم للعلاج من أول يوم يتلقى العدوى بهذا المرض، والمصيبة الأكبر أن يكون المريض المصاب يعيش في المخيمات، وهي بيئة شديدة الاكتظاظ وتسهل العدوى فيها».

الجدير بالذكر أن مديرية صحة إدلب شاركت في الدورة التدريبية التي أقامتها منظمة الصحة العالمية في مدينة غازي عنتاب التركية، في الفترة ما بين ٧-١١ آب الحالي، بحضور مديرية صحة حلب وبعض المنظمات الشريكة، وكان هدف الدورة هو إعادة تفعيل برنامج مكافحة مرض السل، ورفد المراكز التخصصية بأجهزة استقصاء حديثة، وخطة إمداد دوائي منتظم.

«محمد صالح الشمروخي.. كيف هي السماء؟»

خاص زيتون

لعل العبارة التي كتبت على إحدى جدران سراقب الفرعية والمنسية «محمد صالح الشمروخي.. كيف هي السماء» تختصر علاقة الشمروخي ابن الخامسة والعشرين عاما بأهل مدينته سراقب ونظرتهم إليه، كما وتوحي تلك الكلمات بهالة التقدير التي يكنها الشارع الثائر لشهيد عاش ثورته وقضى وهو نقي على مبادئها.

هادئ رزين، ذو أدب وخلق وذكاء، ونظرة عميقة وبعيدة للثورة التي آمن بها سلمية وعادلة ومحقة، وهي ما جعلت منه اسما يصعب نسيانه في السنوات اللاحقة المليئة بالفوضى.

تقول معلمته في المرحلة الابتدائية أنه لم يكن طفلا عادياً، فقد حاز فضلا عن عينيه البنيتين الواسعتين على فصاحة اللسان وملكة اللغة، وهو ما برز فيما بعد بهتافاته السلمية في الثورة، جامعاً حوله الصغار من أبناء الحي الذين أحبوه لرقته ولطافته، معلما لهم تفضيل الحق ومحاربة الظلم مهما بلغت كلفته.

ولد محمد صالح الشمروخي في مدينة سراقب في ١٤ من أيار ١٩٨٧، دفعه ميله للشعر لدراسة اللغة العربية في كلية الآداب في جامعة حلب، وشارك في أولى المظاهرات التي اندلعت في سوريا، ورغم كراهيته المعلنة للسلاح ورفضه المعلن لتسلح الثورة إلا أن ذلك لم يمنع النظام السوري من وضع اسمه على قائمة المطلوبين في وقت مبكر وفي الشهور الأولى للثورة.

كان يوم الثامن والعشرين من آذار ٢٠١٢ يوما حاراً، حين عثر الأهالي على جثة محمد مرمية في إحدى المقابر، وقد شوهها التعذيب الذي تعرض له خلال ثلاثة أيام من اعتقاله من قبل قوات النظام بعد اقتحامها لمدينة سراقب قبل ثلاثة أيام في ٢٥ من الشهر نفسه.

تروي والدة محمد والتي ما تزال تعيش حالة الفقد الشديد وكأن ابنها قد استشهد للتو، أنها حين كانت تمسح جسد ابنها النحيل بعدما جلبوه لها، وجدت وجهه قد تشهوه وكسر في يده مضيفة:

«رفض محمد مغادرة سراقب كما فعل معظم شبان المدينة الذين خرجوا في ذاك اليوم خوفاً من الاعتقال، مجيبا على نصيحتي بالخروج بأنه لا يستطيع ترك بلدته مهما كانت الأسباب».

وتضيف الأم الثكلى أنه بعد دخول عدد من عناصر قوات النظام منزلنا، التجأ محمد إلى منزل جيران لنا فيه حديقة واسعة وأشجار وأعشاب طويلة مكنته من التواري بين العشب وبعد تفتيش منزل الجيران ومغادرتهم، جمع الجنود من الحي عدد من شبانه ووضعوهم على أحد الجدران مهددين بإطلاق الرصاص عليهم».

تكمل أم محمد قصة استشهاد ابنها: «خاف على شباب حارته وأراد أن يلقي نظرة عليهم فوقف وعندها رآه الجنود واعتقلوه واصطحبوه إلى أحد منازل الحي الذي حولوه لثكنة عسكرية لهم يجمعون فيها المعتقلين».

بعد أن عرفوا أنه أحد المطلوبين لهم لمشاركته بالمظاهرات عذبوه بشدة، وكان أهالي الحي يسمعون صوته وهو يرفض تأليه بشار، مصراً على وحدة الخالق، ليستشهد بعد ثلاثة أيام».

أذكر أنه زاد قلقي في ذلك اليوم، إذ لم أكن قادرة على المكوث بمكان وأشعر أني أكاد أختنق، حين نادى الجيران علي وأخذوني إلى منزل شقيقي، أخبروني هناك أنهم وجدوا جثة محمد ملقاة في المقبرة.

كانت رجله مكسورة والآثار واضحة على جسمه وتدل على وحشية تعذيبهم لهم، لم يتحمل بين أيديهم سوى ثلاثة أيام ليفارق الحياة.

تغرق الأم بالبكاء وهي تردد: «لقد كان وجهه مشوهاً جداً، هذا الشاب الجميل بوجهه الأسمر وعينيه الواسعتين لم يكن يستحق ذلك أبداً لقد كان جميلاً ووديعاً، لا يحب العنف والظلم.

لم تجد الأم ما يخفي توترها سوى دمية صغيرة تحركها بين يديها، هي لطفلة صغيرة تجلس بجوارها قالت إنها ابنة صديقه التي أحبها كثيراً، وهاهم صار لديهم أولاد بينما هو انتهت حياته بأبشع طرق القتل.

متحمسا لاستكمال تعليمه له شخصية قوية وجريئة وواثق من نفسه، يمتلك موهبة قيادية منذ صغره، فلم يكن يخاف أن يتحدث على مكروفون المدرسة بكل طلاقة.

لم يحتمل والديه غيابه، ولم يستطيعا أن يسدا النقص في حياتهما، كما عجزا عن النظر في عيون بعضهما تجنبا للبكاء، ورغم محاولة والده المكابرة على جرحه إلا أنه توفي بعد عام ونصف كمدا وحزنا.

ما زالت أم محمد تحتفظ بأشيائه، كتبه، دفاتره، كنزته الصوفية المنسوجة بألوان علم الثورة، صندوق ذكرياته المحبب إليه، كما ما تزال تراه في زوايا المنزل يقرأ ويضحك، تضع صورته على برامج التواصل في هاتفها النقال، كرهت المنزل وغادرته لفترة طويلة بعد عجزها على البقاء فيه بدونه.

وضعت أم محمد في نهاية حديثها يدها على رأس الطفلة الصغيرة بجوارها وغطت عيناها بيدها الأخرى وتوقفت عن الكلام.

برأي سياسييها.. إدلب إلى أين؟

خاص زيتون

تعيش محافظة إدلب منذ نحو شهرين في حالة من الترقب والتكهن حول مصيرها، وتكثر التحليلات حول ذلك، ويضع معظم المحللون أحد خيارين لمصير المحافظة، الأول هجوم النظام عليها على غرار محافظتي درعا والقنيطرة في الجنوب السوري، والثاني هو وضع المحافظة تحت وصاية الضامن التركي، ولا سيما بعد تهجير أهالي الجنوب السوري مؤخراً إليها، وإلحاقهم ببقية المهجرين في الشمال السوري.

لا معلومات كاملة حول الموضوع، وكل ما انتشر لم يتعدّ التحليلات، ولكن في ظل الحديث عن مصير إدلب لا بدّ من التطرق لمصير فصائلها وسلاحها ومصير التجمعات السياسية المتواجدة فيها.

يرتبط مصير التجمعات السياسية ارتباطاً مباشراً بمصير محافظة إدلب، ويختلف باختلاف الواقع الذي سيُفرض على الأرض، ولذلك لابد من الحديث عن مصير إدلب في ظل التجاذبات الميدانية والسياسية من وجهة نظر الناشطين السياسيين وأعضاء التجمعات.

رأي سياسيي إدلب بمصيرها

يعتبر مسؤول مكتب التنظيم في حركة نداء سوريا "مأمون جمعة" أن الهم التركي بقطع أي أمل للأكراد في إقامة دولة لهم على الحدود التركية يعتبر نقطة البداية، موضحا: "التركي خرج من حالة الصدام مع الروسي إلى المصالحة معه، ثم إلى أستانة ليحقق هذا الحلم الذي منعه منه أوباما وإداراته لعدة سنوات، ولقد تم تسوية هذه الملفات في أستانة بين الشركاء الثلاث (التركي والروسي والإيراني)، بدءاً بتسويات حلب والزبداني ووادي بردى ومن ثم الغوطة، ثم دخول تركيا إلى مناطق الشمال كبداية وفقا لهذه التسويات، ثم عفرين، وتنازلت جبهة النصرة عن شرق السكة تنفيذا لتلك التسويات، لذلك فإن ملف إدلب مسلم به من المجتمع الدولي بشكل عام وفي أستانة بشكل خاص لتركيا".

ويفسر "الجمعة" خصوصية ملف إدلب للجانب التركي بعدة أسباب منها "أن إدلب محاطة بالأعداء من جميع الجهات ولا حلم للفصائل بأي دعم إلا من خلال تركيا، وأن جميع الفصائل تجد أن تركيا هي أقرب دولة يمكن الوثوق بها في القضية السورية لجهة الثورة والمعارضة، كما أن جميع هذه الفصائل لا خيار لها إلا تنفيذ توجيهات تركيا".

ويؤكد "الجمعة" أنه في حال تخلت تركيا عن هذا الملف ستكون كارثة على إدلب وقاطنيها، ولذلك كله ستكون إدلب ومحيطها تحت وصاية تركيا خلال الفترة القادمة.

كما يرجع الناشط السياسي وعضو التجمع الثوري السوري "حسين أمارة" كثرة الحديث واللغط عن مصير إدلب إلى ضبابية المشهد السياسي، فاتفاقات أستانة المعلن منها "مناطق خفض التصعيد الأربعة"، أما البنود فقد ظلت سرية.

كما يرى أن التصريحات التركية الأخيرة من إمكانية انهيار أستانة في حال تقدم الروس والنظام عززت مخاوف الأهالي في إدلب كما زاد من التعمية المستقبلية، يعزز هذه المخاوف قناعة السوريين بالغدر الروسي والموقف التركي الرخو والمرتبط فقط وفقط بمصالح الأتراك الأمنية.

ويستبعد "أمارة" ما يشاع حول اقتحام إدلب لعدم انسجامه مع اتفاقات أستانة، ومهاجمة منطقة صار عدد قاطنيها ٤ مليون، وكيف سيكون حال الحدود التركية حيث سيتجمع الملايين في محاولة الدخول إلى الأراضي التركية، ولمعرفة الأتراك بذلك ومن باب مصلحتهم مجبرين على عدم السماح لأي كان بمهاجمة إدلب.

العلاقة تركيا بهيئة تحرير الشام ومصير السلاح

يما يتعلق بغموض العلاقة بين تركيا وهيئة تحرير الشام لا يجد رئيس مكتب التنظيم في حركة نداء سوريا أي مستقبل لهيئة تحرير الشام في إدلب، لأسباب أهمها أن هيئة تحرير الشام ربطت مصيرها بمصير القاعدة منذ البداية، ورغم كل عمليات التجميل التي قامت بها، إلا أن صورة القاعدة لم تغب في شكلها ومضمونها، وهو ما لا تستطيع تركيا ولا أي بلد آخر لديه هامش من الديمقراطية تحمله، ولذلك لن تسمح تركيا ببقاء الهيئة وسيكون تفكيكها من أولى أولوياتها.

ويصف "الجمعة" العلاقة المبهمة ما بين التركي وهيئة تحرير الشام بـ "زواج المتعة" عبر الوسيط القطري هو زواج مؤقت وتكتيكي ونكاية كان مطلوبا في مرحلة مضت من دول عدة لإشاعة الفوضى والرعب المذهبي المقابل لرعب المليشيات الإيرانية، وسينتهي مع انتهاء دور خصمه.

من جانبه يرى "حسين أمارة" أن الروس والإيرانيون كانوا يريدون توريط الأتراك في صراع مع الهيئة، إلا أن الأتراك استخدموا سياسة الاستيعاب والإضعاف بالانشقاقات والحوار، إلى أن يصلوا لمرحلة فرض حل نفسهم أو الانضمام إلى تشكيل وطني مزمع انشاؤه، وهو ما سيأخذ بعض الوقت.

كما يؤكد رئيس الهيئة السياسية في محافظة إدلب "عاطف زريق" أن تركيا تعمل بشكل ناعم لدمج جميع الفصائل ومن بينها هيئة تحرير الشام في الجيش الوطني المنشود من قبل تركيا، ولكن يبقى السؤال هل هذا الأمر مقبول دوليا؟، وخاصة بأن أستانة تنص على أن تركيا ملزمة بحل الفصائل المصنفة إرهابيا، فيما يعتبر عبد المجيد الشريف أن ما تدعيه تركيا من إصرارها على الدفاع عن المنطقة غير صحيح، قد تدافع سياسياً بقدر ما تستطيع، ولكن من الناحية العسكرية لن تحارب الروس ولا الأمريكان، ولن يقبل أي منهما ببقاء أي أثر لهيمنة هيئة تحرير الشام على المنطقة، مشيراً إلى عدم ظهور أي سلوك للأتراك يوحي باقتراب حل الهيئة، وما يشاع من أن تركيا تريد ضم الهيئة وبقية الفصائل إلى فيلق الشام ممكن، لكنه لا يرى أنها ستكون خطوة موفقة، فليس الفيلق بنظر الروس والأمريكان بأفضل من الهيئة.

المناخ السياسي المحلي في ظل الوصاية التركية المحتملة

يرجح أن يكون التوجه السياسي المستقبلي لتركيا في إدلب، وهي الحديقة الأمامية المطلة على مهد الرسالة الإسلامية والماضي الذي تستحضره الذاكرة والمستقبل المنشود، يتركز من خلال هذه البقعة من الأرض، لذلك سيكون التركي منطقيا "داعما" بكل قوة للتوجه الإخواني في إدلب، وتهميش أي حراك وطني سوري في المرحلة المقبلة، وستبتعد عن سورية "إيديولوجيا" كل ما مر الوقت، لأن الروسي سيدعم فكرا "آخر" مناقض علماني وطني، وحكم مدني، من خلال نشاط سياسي متنوع لكن يصب كله في هذا الإطار، بحسب رئيس مكتب التنظيم في حركة نداء سوريا "مأمون جمعة".

إلى هذا لا يرى "الجمعة" أية تجمعات سياسية حقيقية وفاعلة ما دامت الفصائل تسيطر على إدلب، لأن البندقية لا تقبل برأي مخالف لها، وأي تطور سياسي ضمن المرحلة القادمة هو رهن التطور الميداني الذي سيظهر مع الوقت بتوجه سياسة تركيا ومدى حيادها تجاه هذه التوجهات السياسية.

رئيس الهيئة السياسية في محافظة إدلب "عاطف زريق" يفترض أنه إذا ما بسطت تركيا سلطتها على إدلب فينبغي على جميع التجمعات السياسية أن تعمل على تشكيل جسم سياسي موحد وتقدم مشروع للجانب التركي يكون واضح المعالم، مضيفاً: "أظن أن العمل السياسي تحت الوصاية التركية سيتمتع بحرية أوسع وبالأخص السياسات التي تتماشى مع السياسة التركية".

في حين يستبعد الناشط السياسي "عبد المجيد الشريف" وجود مستقبل لأي من التجمعات السياسية القائمة حالياً، وذلك بسبب غياب الأهداف الواضحة والفكر الموحد وخطة العمل، مؤكدا أنه في كلا الحالتين سواء في حال الإدارة التركية أو هيمنة النظام لن تتماسك هذه التجمعات، فارتباط عناصرها لا يتعدى كونهم على صفحة فيس بوك واحدة أو غرفة وتس، وما زالت الأفكار التي تطرح ضمن هذه التجمعات خلطاً بين المطالبة بنظام حكم ديموقراطي وصندوق انتخاب ونظام حكم (إسلامي)، لكن لتركيا تقاليد ديموقراطية لا تسمح لها بالتضييق على العمل السياسي السلمي، ولذلك فان الهيمنة التركية على المنطقة بالإضافة إلى التجربة المرة التي عاشتها يجب ان تكون بيئة ملائمة لعمل سياسي نشط وفعال بحسب الشريف.

مصير الفصائل والسلاح

يرجح "أمارة" أن مصير الفصائل سينتهي لصالح تشكيل جيش حر (وطني) قادر على التفاعل مع تصورات الحل السياسي النهائي، والتي لا بد أنها ستأتي بعد بضع سنوات.

فيما يتصور "الشريف" أنه في حلول ١٥ من الشهر الحالي دون حل الهيئة، فإن ذلك سيسمح للروس باقتحام إدلب إذا استمر الفشل التركي في إلزام الفصائل بتنفيذ البنود، منوهاً إلى أن ما نشر عن ورقة قدمها الجانب التركي إلى الجانب الروسي ما هو إلا محاولة إبدال المهمات الموكلة إليها بمهمات أخرى، ولكن رد الروس جاء سريعاً وواضحاً في جعل النظام يحشد في معسكر جورين وفي جبال اللاذقية استعداداً للمعركة، يبقى الأمل معقوداً على تنفيذ تركيا لتعهداتها سريعاً، كي تتلافى حرباً ضروساً ربما تكون أقسى من كل ما حدث سابقاً ولن تسلم تركيا من لظاها.

ويضيف "الشريف": "إذا كانت تركيا تخشى من عمليات تخريبية قد تنفذها الهيئة داخل الأراضي التركية إن هي احتاجت استخدام القوة لتفكيكها، فإن مثل هذا الاحتمال سيكون قائماً إذا شعرت الهيئة أن الأتراك قد غدروا بها وسلموها للنظام.

السماق موسم اقتصادي في جبال إدلب

مذاقه حمضي، أوراقه ريشيّة الشكل، ذات تقابل متناسق ومظهر جميل، وثماره من ذوات البذرة الواحدة، تتجمع فيها على شكل عناقيدٍ تغطّيها شعيرات كثيفة، يعيش في الجبال والهضاب الوعرة وحول البساتين، وعلى حوافّ الأنهار والوديان، على شكل شجرة صغيرة الحجم أو شجيرة من الفصيلة البطمية، قليلة التفرّع، يتراوح ارتفاعها من متر إلى ثلاثة أمتار، وله قدرة جيدة على التأقلم مع معظم البيئات، كما أن له مكانة ضمن التوابل والبهارات، ويشكل موسماً زراعياً جيداً في غالبية المناطق التي ينتشر فيها ويتم رعايته بها، وذلك لكونه لا يحتاج لأية تكاليف.

خاص زيتون

لعل لإدلب الخضراء نصيب من كل خضرة، فلا يقف الأمر عند زيتونها أو فاكهتها، بل يتعداها إلى الشجيرات البرية المهمة والمثمرة كالسماق، والذي تنتشر شجرته وزراعته في مناطق واسعة من جبال وهضاب إدلب، مثل جبال حارم وسلقين والزاوية والتركمان غربي جسر الشغور، حتى أن هناك جبلاً يسمى باسمه "جبل السماق"، والذي يقع شرق جنوب حارم، كما يقال أنه الاسم القديم لجبل الزاوية.

"هيثم الديب" أحد أبناء جبل السماق تحدث لزيتون عن خصائص السماق من ناحية الزراعة بقوله: "السماق في الأصل شجرة حراجية برية، إلا أن الأهالي عمدوا فيما بعد إلى زراعة هذه الشجرة في عدة مناطق، وذلك للاستفادة من الأماكن الوعرة والغير صالحة للزراعة، إذ أن شجرة السماق تُزرع في الأماكن التي لا يمكن لغيرها من الأشجار أن تعيش فيها، فضلاً عن أنها شجرة مفيدة ولا تحتاج لأي رعاية".

وعن طريقة جنيه قال "الديب": "ينضج محصول السماق في شهري آب وأيلول، ويتم قطاف ثمار السماق التي تكون على شكل عناقيد بعد نضجها، أي عندما تصبح ذات لونٍ أحمر قاني، وبعد القطاف يتم نشرها وتعريضها لأشعة الشمس، حتى يسهل استخلاص حبوب السماق من أعوادها عبر طرقها بالعصي، ومن ثم يتم تعبئة الناتج وبيعه".

وتتراوح الفائدة الاقتصادية من هذا الموسم من منطقة لأخرى حسب الاهتمام به، وحتى من شخص لآخر حسب عدد الأشجار التي يمتلكها الشخص سواء البرية أو التي تم تشجيرها، حتى يغدو موسما هاما في بعض المناطق ولدى بعض المزارعين.

وعن ذلك قال تاجر السماق "عبد القادر جيلو" لزيتون: "يعتبر موسم السماق الحالي الموسم الزراعي الثاني أو الثالث في جبالنا، وهناك بعض المزارعين الذين قاموا بزراعته لأول مرة هذا العام، وذلك لأن مردوده الاقتصادي لا بأس فيه، ويعادل مردود أي نوع من الأشجار المثمرة، بل ينافسها من حيث التكلفة، بالإضافة إلى أن الشجرة الواحدة منه تنتج ما بين ٢ إلى ٥ كيلوغرامات بحسب حجمها، لذا قام الكثير من المزارعين بزراعة السماق بكثافة"، مضيفاً:

"كأي مادة أخرى السوق عرض وطلب، والأسعار تختلف من عام لآخر، حيث تراوح سعر الكيلوغرام الواحد منه في العام الماضي ما بين ١٠٠٠ و ١١٠٠ ليرة سورية، في حين نشتريه من المزارعين هذا العام بمبلغ ٤٠٠ إلى ٦٠٠ ليرة سورية، وكونه يدخل في صنف التوابل والبهوريات وليس الأشجار المثمرة، يكون الطلب عليه أكبر، وأسعاره أعلى، حيث يصل سعر الطن الواحد منه أحياناً إلى ٢٤٠٠ دولار أمريكي، أي ما يعادل المليون وثمانمائة ألف ليرة سورية".

وتعد جبال إدلب الغربية كجبال حارم وسلقين وجسر الشغور الأكثر استفادةً من مواسم السماق، وتزداد فاعلية الموسم كلما اتجهنا غرباً، حيث يلاحظ الاهتمام فيها بهذا الموسم أكثر من جبل الزاوية، والتي لايعد السماق فيه موسما، رغم وجوده.

ويفسر "خالد مطر" أحد أبناء جبل الزاوية ذلك، بأن السماق يؤثر على شجر الكرز كونه كثير الإنبات ويتشعب، مما يجعل المزارعين يقتلعون شجيرات السماق باستمرار، إلا أنها تعود وتنبت من جديد، ولهذا السبب تكون عمليات بيع السماق محدودة في جبل الزاوية، وتقتصر على استخدامه من قبل الأهالي لاحتياجات المنزل فقط، بحسب "مطر".

وعلى الرغم من انتعاش هذه الزراعة في جبال إدلب الغربية مقارنةً بغيرها من جبال المحافظة، إلا أن ذلك لا يمنع من وجود عوامل أثرت سلباً على زراعة السماق، كما لا يمنع أن تلقَ هذه الزراعة نصيبها من تأثيرات الحرب كباقي الزراعات، حيث يشكو أهالي "جبل باريشا" في منطقة حارم، من تعرض السماق كشجرة حراجية برية لعمليات قطع كبيرة، بعد غلاء المحروقات في ظل الحرب، مما أثر سلباً على هذا الموسم، كما تأثرت أسواق تصريفه أيضاً بظروف الحرب وصعوبة التبادل التجاري، ولاسيما بعد انقطاع حلب عن ريف إدلب، والتي يتواجد بها "سوق البهوريات" في حلب القديمة، الذي كان يعد أهم أسواق السماق لأهالي إدلب.

استخدامات السماق وفوائده

يستخدم السماق بسبب طعمه الحامض كمنكّهٍ يضاف إلى الطعام، وفي بعض الصناعات الغذائية كصناعة الزعتر والتي يكون السماق أساسياً فيها، كما يستخدم في الصباغة ودبغ الجلود، نظراً لاحتوائه على كميّة كبيرة من المواد العفصية الدابغة.

أما من الناحية الطبية فيستخدم السماق لعلاج الفطريات التي قد تظهر على السطح الخارجيّ من الجلد، وفي علاج التهاب اللثة وبعض الجروح والحروق، كما يستخرج حمض "الجاليك" من السماق، وهو أحد مركبات المواد العفصية الموجودة فيه، والذي يعد مضاداً جيداً للبكتيريا، مما يجعل السماق مصدراً لعلاج العديد من الأمراض التي تسببها البكتيريا.

إدلب الخضراء لكل شجر فيها نصيبٌ، ولو تربع الزيتون على تلالها، لكن له زركشات بكل أنواع الفواكه، فكرز جبل الزاوية يرصعه كالياقوتٍ، وتلونه فواكه دركوش وجسر الشغور بشتى الألوان، ولابد لعناقيد السماق الحمراء من أن تتواجد ضمن نسيج الخضراء الجميل، ليمسي تاجاً أخضراً مرصعاً بكل ألوان الحلي.

لقد حرقوا قلبي.. ابني وابن أخي في لحظة واحدة

غادة باكير

«ولدي من مواليد عام ١٩٩٤، التحق بالجامعة في عام ٢٠١٢، كان يدرس في كلية التربية بدمشق»، للوهلة الأولى قد تبدو هذه الكلمات عادية، لكنها عندما تكون من أب مكلوم بولده، تحمل في طياتها الكثير الكثير، وتحمل دمعة مختبئةً يحاول التستر عليها، بينما يأبى صوت بكاء الأم إلا العلن، مترافقاً بصرخاتٍ قلبها الملوّع وهي تنطق «آخٍ.. آخ..».

«كم كان يحب الشام ويحب الدراسة، ويعشق الرياضة، كان يلعب كرة القدم في أحد النوادي الرياضية.. يا روحي محمد»، قالتها أم محمد وصمتت لتبوح بدموعها عن ألم لا يتعافى أبداً.

«كان يتميز بطوله، البالغ نحو مترين، عندما كان في المدرسة طلبوه لينضم لمنتخب سوريا الدولي بكرة السلة، ورغم معرفتي بحبه للرياضة إلا أنني رفضت ذلك، وطلبت منه الاهتمام بدراسته، ولاحقاً اختار كرة القدم، لقد كان هادئاً متّزناً، أبيض الوجه، لا تفارقه الابتسامة» قالها والد محمد، ثم أضاف:

«منذ استشهاده وحتى اليوم لم نعرف طعم الحياة، ففي كل لحظة نحيا غصة فراقه، وننظر بحرقة إلى خزانته وأشيائه وصوره».

قالت الأم وهي تواصل نحيبها: «لا أقوَ على النظر إلى صورته، وكلما شاهدتها أشعر بالنيران تحرق قلبي، وأعاني من المرض، لم يعد للحياة معنى بعد غيابه».

اعتقل «محمد سعيد الجمعة» في خريف عام ٢٠١٣، قرب كلية التربية بدمشق، وذلك بعد خروجه من قلب مظاهرة هناك مع ابن عمه الذي كان قادماً من بلدتهما الغدفة لزيارته.

اعتقلت قوات النظام محمد وابن عمه بسيم اللذين شاركا معاً في المظاهرة، ليتشاركا لاحقاً المصير، وهما الطالبين الجامعيين اللذين اعتاد كل منهما الخروج بمفرد في مظاهرات جامعته، وشاءت الأقدار أن يتم اعتقالهما في أول مظاهرةٍ ترافقا فيها.

إحدى زميلات محمد في الجامعة، أبلغت عائلته باعتقاله وابن عمه، فكانت الكارثة بالنسبة للعائلة، ونظراً لاعتقال الشابين في دمشق، وإقامة عائلة محمد هناك، فقد تولى والد محمد مهمة البحث عن ابنه وابن أخيه، ولينتهي به المطاف في منتصف تشرين الثاني عام ٢٠١٤ مع بطاقتين شخصيتين وشهادة وفاة لم يكن يتمنى أن يراها في حياته أبداً.

يقول «سعيد الجمعة» والد الشهيد محمد: «راجعت العديد من الأفرع الأمنية للسؤال عن ابني محمد وابن أخي، وفي فرع الشرطة العسكرية أعطوني ورقة لمراجعة مشفى المجتهد، وبعد البحث في سجلات المشفى، فوجئت باسم ابني وابن أخي، وقد استشهدا بعد اعتقالهما بأربعة أشهر، لم أعرف ما الشعور الذي انتابني حينها، وعلى من أحزن، إنهما ابني وابن أخي».

صمت والد الشهيد محمد، وكأنه يعيش تلك المشاعر في هذه اللحظات ولأول مرة، ليعود ويواصل حديثه:

«كانت زوجة أخي عندي في دمشق، وقد جاءت تريد التوصل لخبر يبرد نار قلبها، وكانت تنتظرني في المنزل علّني أحمل لها ذلك الخبر الذي تريده، ولكن ماذا عساي أفعل، وبماذا أخبرها، وهي التي تتأمل غير ما وصلت إليه».

بدا والد محمد كمن يحدث نفسه، ويستعيد حيرته تلك، وتوتره في ذلك اليوم، ليستطرد قائلاً:

«عدت إلى المنزل، وحاولت ألا أظهر لزوجتي زوجة أخي أي شيء، وتذرعت بخيبة أملي لعدم توصلي لنتيجة، ثم ذهبت إلى باب مصلى، وأحضرت شهادة وفاة لابني، ومن ثم توجهت برفقة العائلة إلى الغدفة، وبعد وصولي أخبرت الجميع بنبأ استشهاد محمد وابن أخي بسيم، وسلمت هويته لأهله، وأقمنا عزاء لهما، كانت أياماً عصيبة، أتمنى أن لا تمر على أحد».

أجهش والد الشهيد «محمد سعيد الجمعة» بالبكاء وهو يردد: «لقد حرقوا قلبي.. ابني وابن أخي في نفس اللحظة».

لربما يا صغيري يمكن أن تفعل ما عجزنا عنه

بشار الخالد

أول من رسمت شعار الجيش الحر، لم تكن لتعلم في ذاك الوقت أن تلك الحمامة التي لونت جناحيها بألوان علم الاستقلال سوف تتكرر لتكون شعار ذاك الجيش الوهم والحلم والثورة، الحقيقي والزائف الموجود وغير الموجود، جيش يمكنك التحدث عنه لكن لا يمكنك الإمساك به.

ولم تكن تلك المرأة الأربعينية ذات ميول سياسية، هي ربة بيت عادية، مدبرة وحنونة وتهتم بأسرتها كما كل النساء، وكانت تسأم من حديث زوجها الحاد والدائم عن فساد النظام قبل الثورة، ولطالما حاولت أن تصرفه عن الحديث بالسياسية في اللقاءات العائلية التي كانوا يحضرونها، لما تثيره تلك النقاشات من خلافات قد تصل حدود الخصام، حتى بلغ بها التفكير إلى التواطئ مع النساء الأخريات لمنع أي حديث يجري عن السياسة حفظا للعلاقات العائلية بين الأسر المجتمعة.

لكن دمعت عيناها حين رأت زوجها يحمل أطفاله في أخطر ما يمكن أن يغامر به أب بأطفاله، في المظاهرات الأولى التي تقف على جرف القتل المتوقع.

كانت تقف على باب بيتها ترقب صوتها ومسيرتها، وكانت تعرف إلى أي مكان وصلت وفي أي منعطف هي فيه، تستعين بهاتف البيت لتستقصي أخبار عائلتها المنخرطة بشدة في الحراك، حتى انخرطت هي فيه دون تفكير.

بيديها نسجت لفحة طفلها بألوان علم الثورة، وتمترست بحيطان بيتها فيما البراميل تتساقط حولها، قرأت آيات ألهمتها الصبر والثبات، وتمسكت بإيمان زوجها بثورته، ألفت هتافات لطفلها كي يرددها في الجموع، زينته وألبسته وأطلقته في اليم.

كبر الصغير وصار الطفل فتى وما زالت الطائرات تعول بالسماء، فيما خبت المظاهرات ونبتت اللحى، وطغى السواد على القلوب قبل الثياب، وتشتت الرفاق كل في طريق.

كان عليها أن تأخذ القرار في مصير مستقبل طفلها، وأن تجيب على سؤاله المعلق طويلا: وماذا بعد؟

خياران لا ثالث لهما، إما أن يلتحق بامتحانات الشهادة الإعدادية التابعة للتربية الحرة، والتي لا تغني ولا تسمن من جوع، أو عليها أن تغامر في أخذه لمناطق سيطرة النظام ليحصل على شهادة يمكنه أن يتابع مستقبله من خلالها.

صلت استخارتها، واستشارت من تثق بهم، وفكرت في ليلها ونهارها وظل السؤال الذي يؤرقها هل يمكن أن يعتقلوه على صغر سنه؟

ولكي لا تسمح بالضعف أن يؤثر على مستقبل صغيرها أخذت قرارها ومضت به في حافلة غصت بالطلاب المتوجهين إلى حماه لتقديم امتحاناتهم، على الحواجز التي لم تصدق أنها تقف فيها، نظرت إلى وجوه الجنود، وحاولت أن تفهم من عيونهم كيف يفكرون، تذكرت كل ما جرى في السنوات الماضية، وكل الذين سقطوا تحت قصف الطيران، كما تذكرت أجيالا حرمت من التعليم، وأطفالا حرموا من حنان الأب أو الأم، كان الفارق معدوما بالنسبة لها ما بين طفل أمي وآخر ميت، بعدما عبرت الحافلة الحواجز، نظرت إلى وجه طفلها المرعوب، ومسحت على رأسه وهي تقول لنفسها «لربما يا صغيري يمكنك أنت وجيلك أن تنجزوا ما بدأناه، وتفعلوا ما عجزنا عن فعله».

رواج الولادات القيصرية.. أسباب ونصائح

لوحظ في السنوات الأخيرة زيادة كبيرة وملفتة في عدد الولادات القيصرية، والتي تعتمد على عمل جراحي في البطن، لاستخراج الجنين، بدلا من الولادة الطبيعية، فما سبب رواج هذا النوع من الولادات؟ وما هي منافعها ومضارها، علما أن نسبتها تزداد يوما بعد يوم، على حساب الولادات الطبيعية.

لا يمكن اعتبار الولادة القيصرية والتي تعد عملا جراحيا وحالة طبية حديثة، عملية خاطئة في إطار لزومها ومبرراتها، لكن كثرتها تستدعي البحث عن أسبابها لا سيما في ازدياد الاعتماد عليها في نسبة كبيرة من الولادات.

أسامة الشامي

ما هي الحالات التي تستوجب القيصرية؟

ويحدد الطب الحالات التي يتعين فيها إجراء العمليات القيصرية تحدثت الطبيبة النسائية «إلهام الصالح» عنها لزيتون:

«تحتاج النساء الحوامل لعملية قيصرية في عدة حالات منها عندما يكون هناك عدم تناسب جنيني حوضي (صغر الحوض قياسا برأس الجنين)، ومنها أيضاً المجيئات المقعدية (أي عندما يتقدم مقعد الجنين بدلا من رأسه)، كذلك تحتاج الحامل إلى عملية قيصرية عند وجود أكثر من جنين، أو في حالة انفكاك المشيمة».

وتضيف الصالح على الأسباب الأنفة أسبابا أخرى منها إصابة المرأة بفيروس «الحليمة» و«الهربس»، وخوف الأطباء من انتقال العدوى للجنين، أو وجود مرض مزمن في الأم قد تؤثر الولادة في تضاعفه كمرض القلب مثلا، والذي يرتفع خطره بمجهود الولادة الطبيعية، كما أن من الحالات الموجبة للقيصرية وجود تقلصات رحمية مع عدم حدوث توسع في عنق الرحم، إضافة إلى الوزن الزائد عند بعض النساء».

إلا أن هذه الحالات لا تتناسب مع نسب الولادات القيصرية المرتفعة، حيث يلاحظ الأطباء نسب عالية لا تفسرها هذه الحالات، وهو ما تؤكده الطبيبة «إكرام هبوش» مديرة مشفى «الأمومة التخصصي» بإدلب لزيتون:

«نسبة الولادات القيصرية حاليا ٥٠ ٪، والنسبة الطبيعية لها يجب ألا تتجاوز الـ ٢٠٪ «، مرجعة ارتفاع هذه النسبة لافتقار النساء للصبر على وقت الولادة الطبيعية، إضافة إلى الوضع الأمني الصعب ومخاطر القصف، ما يدفع المرأة ومرافقيها للتعجيل بالولادة ورغبة الخلاص بسرعة، وذلك لما تحتاجه الولادة الطبيعية من وقت طويل.

وترى «هبوش» أن رغبة بعض النساء بتجنب ألم الولادة الطبيعية هو سبب أخر يدفع النساء للجوء للعملية القيصرية، حيث تخدر المرأة فيها لتصحو من التخدير وطفلها بجانبها، وهذا ما تريده بعض النساء.

فيما تعتبر الدكتورة «مرام» أن رواج الولادة القيصرية ظاهرة عالمية بسبب التطور الطبي التشخيصي ورغبة النساء بها قائلة: «في الآونة الأخيرة ازدادت نسبة القيصريات عالميا، بسبب دقة المراقبة عبر «الإيكو» المتطور الذي يكشف تألم الجنين بشكل مبكر، كما تطلب الكثير من النساء هذه الولادة دون الحاجة الطبية لها».

أدوار سلبية لبعض العيادات والمشافي

بالوقت الذي تحذر بعض الطبيبات من هذا النوع من الولادات تتسبب غيرهن فيه، تقول إحدى الطبيبات فضلت عدم الكشف عن اسمها أن هناك أخطاء طبية مقصودة وغير مقصودة تدخل بمسببات زيادة القيصريات، منها إعطاء الولادة محرض طلق، هذا المحرض يزيد الطلق قبل فتح عنق الرحم ليناسب الولادة، مما يضطر الحامل لإجراء عملية جراحية، وهنا يكون الخطأ، وقد يكون جهل طبي لدى بعض الطبيبات باعتبار غير نساء افادها المحرض، وقد يكون مقصود لتلقي أجر العملية القيصرية، وهو أجر أعلى من أجر الولادة الطبيعية بعدة مرات».

ثقافات نسائية عصرية

لعل الثقافات النسائية العصرية سببا هاما بكثرة الولادات القيصرية، وخصوصا عند عدم وجود سبب طبي أو أمني لها، وهذا ما أفادت به مجموعة من النساء اللواتي يفضلن القيصرية، حيث تركزت معظم الإجابات على أن الولادة القيصرية أكثر سهولة وراحة، كما أنها تحافظ على جسد المرأة كما لو أنها لم تلد، إضافة لرغبة بعضهن بقلة عدد الأولاد، إذ تمنحهن القيصرية هذه الفرصة كنتيجة طبيعية دون مشورة الرجل الذي يجد نفسه أمام أمر واقع في تحديد عدد الأطفال، فالولادة القيصرية لا تسمح بإمكانية الولادة لأكثر من ٥ أو ٦ مرات، ويعتبر البعض أن هذه الظاهرة هي نتيجة لتأثيرات ثقافية عالمية، انتقلت إلى المجتمعات العربية كالتطور التكنولوجي والاجتماعي العالمي الحالي.

يفسر ذلك تقارب النسب العالمية للقيصريات وتزايد ارتفاعها بكل دول العالم، دون اكتراث النساء لمخاطرها، حيث أجريت دراسة عالمية نقلها موقع «الباحثون السوريون» الإلكتروني، جاء فيها:

«أن نسبة الولادات القيصرية العالمية في عام ١٩٧٠ كانت واحدة من كل ٢٠ ولادة، أي ما يساوي نسبة ٥٪ من الولادات، في حين ارتفعت بتسعينيات القرن الماضي لواحدة من كل ٥ نساء حوامل، أي ما يساوي نسبة ٢٠٪ من الولادات، لتبلغ حاليا نسب تقارب الـ ٤٠ ٪، وقد تصل لنسب عالية جدا تبلغ الـ ٨٠ ٪ ببعض البلدان».

تقول «رواد الجبيلي» إحدى نساء ريف إدلب الجنوبي: «أصبحت القيصرية شيئا من التقليد الذي يدل على تحضر المرأة لدى بعضهن، فحين انجبت بولادة طبيعية، انتقدتني عدة صديقات لي، وكأني قمت بعمل متخلف، وأرهقت نفسي أيضا»

مخاطر ومضاعفات القيصريات

تؤكد بعض المواقع الطبية أن نسبة وفيات النساء ضعفين تقريباً في الولادة القيصرية بالمقارنة مع الولادة الطبيعية، كما تترافق الولادة القيصرية بمضاعفات منها الإنتان، والأمراض الصمية، إضافة لعوارض التخدير والتبعات الجراحية ووهن الرحم وتأخر عودة وظيفة الأمعاء لطبيعتها.

وتضيف الطبيبة إكرام هبوش عن مضاعفات القيصرية: «من مضاعفات العملية القيصرية ما يسمى «بالمشيمة المركزية»، وهو ما يعني أن تتركز المشيمة في مكان ندبة العملية، ما قد يؤدي لاستئصال الرحم، أو «المشيمة الملتحمة» أي أن تلتحم المشيمة بجدار العملية وتؤدي لاستئصال الرحم».

وتنصح هبوش أن تأخذ النساء فرصتهن الكاملة في الولادة الطبيعية قبل الإقدام على العملية القيصرية، دون الالتفات إلى أية أسباب أخرى غير طبية أو أمنية.

نصائح وقائية للحد من الولادات القيصرية

أوردت «الجمعية الأمريكية لأطباء النساء والتوليد» عدة نصائح حول الوقاية من الولادات القيصرية، منها السماح بطور باكر وطويل المدة للمخاض، والسماح بمزيد من الوقت لتقدم المجيء خلال الطور الفعّال، واستعمال التقنيات المساعدة للولادة الطبيعية عند الحاجة، وأن تُترك النساء اللواتي ولدن سابقا ولادات طبيعية لتدفع لمدة ساعتين أو أكثر، في حين تُترك المرأة البكر لتدفع لمدة ثلاث ساعات أو أكثر، وقد يُسمح بالدفع لأكثر من ذلك في بعض الحالات، إضافة لمحاولة إجراء قلب رأسي خارجي للجنين ذي المجيء المقعدي، ومحاولة إجراء الولادة الطبيعية في الحمل التوأمي اذا كان للطفل الأول مجيءٌ رأسي، كما يجب تشجيع الحوامل على تجنب زيادة الوزن المفرط خلال الحمل.

وتنصح العجائز النساء الصغيرات بالتحلي بالصبر وتحمل آلام المخاض الآمن، حتى تكون الولادة طبيعية، والابتعاد قدر المستطاع عن السهولة التي تجر خلفها مخاطر جمة في العمليات القيصرية.

القربان.. فيلم وثائقي يستنهض شهداء الثورة الأوائل

أحمد فرج

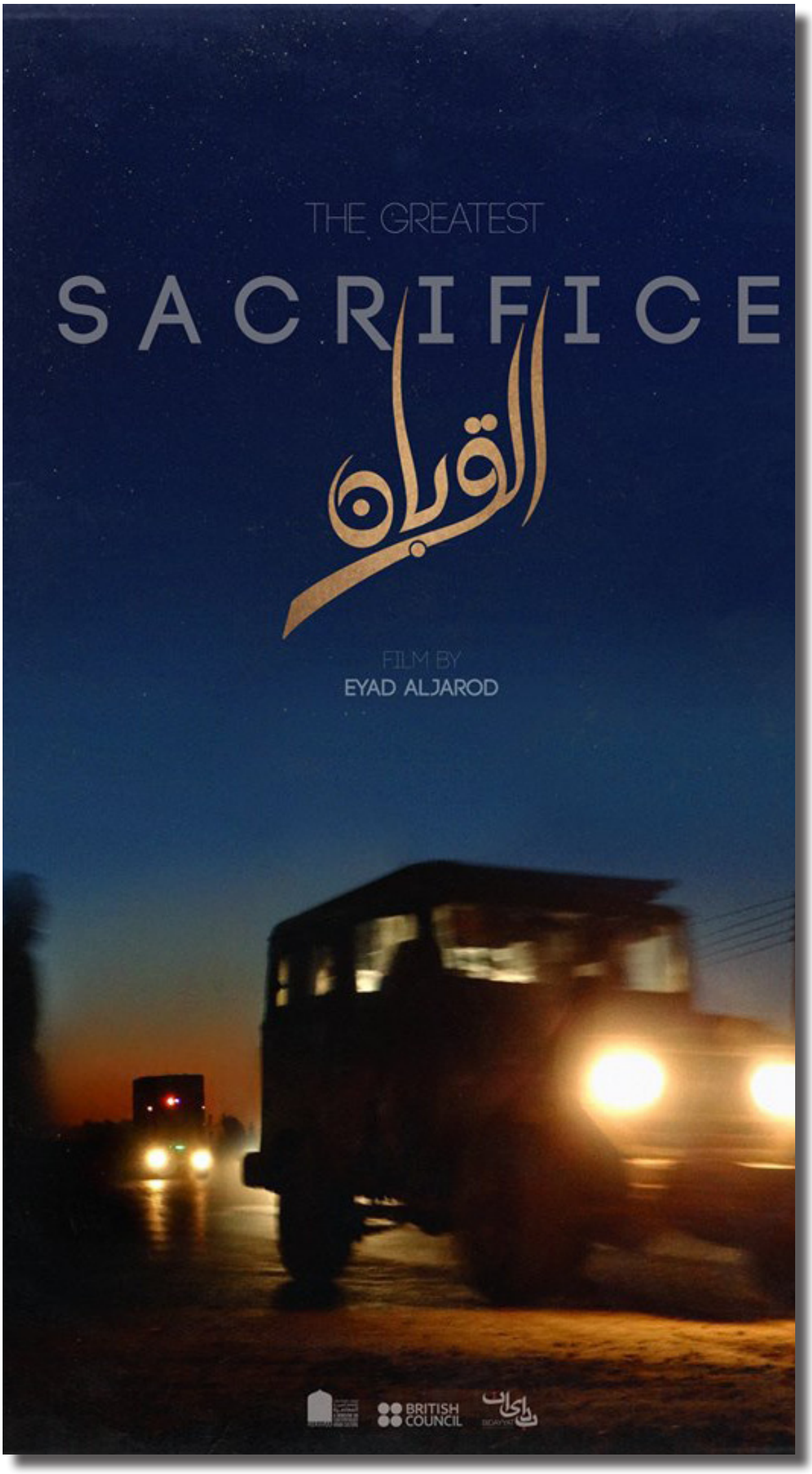

«اليوم أسقط عني عبئاً آخراً كنت قد اخترت حمله وادعيت أمانتي به، عبء الموت وعبء الرسالة، رسالة لمن أضل السبيل، أحملها بقداسة أب وأم حملا نعش ولدهما ليقدمانه قرباناً للحقيقة والحرية»، بهذه العبارة قدّم المخرج السوري «إياد جرود» فيلمه الجديد الثاني «القربان»، الذي انتهى من إخراجه مؤخراً، والذي يرصد تطورات الثورة السورية ومراحلها من خلال بطلين عاشا أحداثها في مدينة سراقب بريف إدلب الشرقي.

يحاول الفيلم الوثائقي بـ ٩٦ دقيقة عبر الفيديو الترويجي الذي تم نشره في الصفحة الرسمية للفيلم، رسم لوحة بانورامية للثورة السورية وتسلسل تطورها، لينطلق من مشاهد تشييع الشهداء إلى المظاهرات في بكرها وذروتها مرورا بتسلّحها وانحرافها، وذلك برفقة عدسة قريبة وملتصقة بالشارع والوجع اليومي والمنعطفات الحاسمة فيه.

وعن عنوان الفيلم يقول «الجرود»: «نحن هنا نتحدث عن التضحية، وهي القيمة التي وجدت مع خلق البشرية، وعلى مر العصور مارستها الكثير من الحضارات أو المجموعات، وكانت لكل منها خصوصيته وتعريفه لها، في حالتنا السورية فإن التضحية هي فعل يومي يمارسه الكثير من السوريين، ليس فقط في تضحيتهم بأرواحهم أحياناً أو كونهم ضحايا في أحيان أخرى، وإنما تتسع هذه التضحية لتشمل كل تفاصيل حياتهم»، مشيراً إلى أن التضحية بإرادتنا وبكامل حريتنا لأجل الآخر ولأجل القيم التي نؤمن بها، هو ما نتقاطع معه في فيلم القربان».

«حاف» و«الداعور» هما الشخصيتان الرئيستان اللتان تركا أثراً بالغاً في وجدان المدينة الثائرة، بما مارساه من إيمان عميق بثورتهما وصداقتهما، وصدقهما بتقديم نفسيهما كقرابين لثورة الحرية.

يقول مخرج الفيلم عن بطليه: «الشخصيتان وقبل كونهما تمثيلاً لحالات فردية لها خصوصيتها، تمثلان نموذجاً عن شريحة كبيرة من الشباب السوري الذي عايش تلك التحولات واختبرها، إضافة لكونهما يمثلان جملة من القيم التي آمنا بها إلى حد استحقا التضحية لأجلها».

ولعل أبرز ما يوضحه الفيلم هو ذلك البون الشاسع ما بين أولئك الذين أشعلوا الثورة بإيمان حقيقي منهم، وبين من تسلقوها من تيارات دينية ولصوص وظلاميين، إذ تتجلى هذه المقارنة في ثنائية المدينة والطريق، سراقب وطريقها الرئيسي الذي يدور حولها، وفي شخصية «الداعور» الذي حاول حمل أمانة صديقه «حاف» في حفظ الطريق من اللصوص، ليكشف الداعور في مشهد مؤثر الجهة الفاسدة في الثورة.

يترك المخرج استخلاص رسائل الفيلم للجمهور، الفيلم الذي يمر في مرحلة بناء الخطة الترويجية وآليات العرض والذي يعد «الجرود» بمشاركتها مع الجمهور من خلال الصفحة الرسمية للفيلم.

يقدم الفيلم وثيقة واقعية للتفاصيل التي شكلت قصتنا، لكيلا يترك لسياسة مسيطرة أو لقاتل منتصر أن يروي قصتنا أو يكتب تاريخنا كما تقول صفحة الفيلم، هذه التفاصيل التي توقفك عند فكرة صراع الخير والشر، الشر الذي لا يمكن أن يسقط عنك لمجرد كونك معارضا للنظام.

إضافة لسنوات التصوير الثلاث، احتاج الفيلم لأكثر من سنة لإتمام إنتاجه، ويعود ذلك للإمكانيات المتاحة والإصرار على الحفاظ على مساحة الحرية الكاملة في هذا الإنتاج، دون الخضوع لأي تدخلات من شأنها أن تؤثر في مسار القصة وحقيقتها بحسب «الجرود».
فيلم القربان هو الفيلم الثاني للمخرج بعد فيلمه الأول «دفاتر العشاق» إضافة إلى مجموعة من الأعمال القصيرة.

شارك فيلم «دفاتر العشاق» وهو فيلم وثائقي متوسط الطول، إنتاج ٢٠١٤، في مهرجان روتردام السينمائي الدولي في هولندا، ومهرجان السينما الكيبيكية مونتريال - كندا، كما عرض في سينما قصر الأمم المتحدة في جنيف، إضافة إلى عدد من العروض الأخرى، وثلاثة عروض تلفزيونية.

تساؤلات سوري صغير

ياسمين محمد

في مكالمة فيديو كنت أتحدث فيها إلى أخي، جاء صغيري يركض عندما سمع صوت خاله، وبدأ يتحدث معه ويسرد له ويسأله، كانت المصادفة أن ذكر أخي اسم صديقه «كنان»، رداً على أحد أسئلة ابني، وهنا كانت الفاجعة. لم نكن نعلم أن وجهه الصغير سيتحول إلى وجه بالغ انهكته المصائب، أصفراً شاحب، وجهاً مختلط الملامح، عينين جاحظتين، وفماً مفتوحاً، ويدان تتخبطان.

وقف بسرعة من على كرسيه: «عمو كنان!، ليش وين هو ايمت طلع، هو عندك، كيف...». سيل من الأسئلة لم نعد نعرف أولها من آخرها انهالت علينا، أسئلة كانت مختبئة في جوفه لا تجرؤ على الخروج، وخرجت خلسة وبعفوية رغما عن لسانه الذي كان يرفض البوح بها سابقاً.

ربما هي الشجاعة أو ربما الخوف الممزوج بالفضول وبالبحث عن الأمان والاطمئنان، قد يكون قلبه الصغير لم يعد يحتمل أن يعيش في حالة من الشك بين هنا وهناك، وقد يكون طفوليا أكثر من ذلك.. لا أدري!

قبل أيام سمعني أتحدث مع خالتي عن قريب استشهد في سجون النظام، لا أعلم ماذا سمع بالضبط، ولكنه دخل فجأة إلى غرفتي، وبدأ بالصراخ «اصمتوا لا أريد أن أسمع شيئا».
لا أعلم إن كان قد كبُر أكثر من اللازم ككل الأطفال في سوريا، لا أعرف إن كان قد ربط قصة قريبنا باسم عمه المعتقل في سجون الإرهاب والإجرام الأسدي.

وحتى هو لا يعلم ما الذي جرى له، وما الذي غيره وقضّ مضجعه لأيام، ليأتي بعدها بأسئلةٍ جديدة، ربما فقد الأمل بالعثور على إجابة أسئلته السابقة، والتي لا نملك لها أجوبة، حالنا حال كل عائلات المعتقلين، وقد تكون كما هي العادة، اقتراب ذكرى المجزرة التي غيرت مجرى حياته.

قد يكون استنتج الإجابة عن أسئلته من اللا إجابة، فبدأ يبحث عن غريمه، وبينما هو جالس على المائدة، حيث لا مجال للهرب، ولا مفر من الرد على إلحاحه، اغتنم الفرصة وسأل: «لماذا روسيا وإيران ضدنا؟»
للوهلةِ الأولى كان سؤالاً بسيطاً، أجبته: لأنهما مجرمتان.
كيف ولماذا؟
من يدعم مجرماً يكون مثله!
ضمن جزءً من إجابةٍ لم تعجبه، ولكن جزءً أفضل من لا شيء، فاستغله وتابع: يعني روسيا وإيران هما المسؤولتان عن قتلنا؟
كان سؤالاً محرجاً بعض الشيء، ولكنني حاولت التهرب عبر الإجابة السابقة ذاتها دون تغيير، واكتفيتُ بها، بينما لم يكتفِ هو، ولكنّ على الأقل فهم شيئاً منها، فواصل استقصاءه: ومن غير روسيا وإيران ضدنا؟
كان هذا سؤالا صعبا، فبماذا أجيبه؟، أأُخبره وأزرع الأحقاد في قلبه تجاه الجميع؟، بدأت أقلّب الأمر في رأسي، علّي أجد إجابة ترضي طفلاً ثائراً مكلوماً يبحث عن عدوه الذي قتل أهله وشرّدهم وفعل بهم ما فعل.
روسيا وإيران لا تكفيانه، ربما يكون قد سمع ذات مرةٍ الجملة المعروفة «الجميع تآمر علينا وشارك بقتلنا»، وربما لم يسمعها ولكن ما عاشه وعرفه عن بلده يشرح نفسه بنفسه، ويؤكد له أن دولتين لا يعرف عنهما شيئاً، مع المجرم بشار غير كافيتين لتدمير سوريا وتبرير ما حصل فيها.
«حزب اللّه»: الاسم سيخلق لديه مشاكل، ولا مجال للشرح بالسياسة لطفلٍ منذ شهرين دخل بالعاشرة، فضلاً عن أنّه عربي ومن جنسيةٍ شقيقة، لم توفر حكومةً ولا شعباً ولا سواه جهداً كما حزبها، وكذلك «العراق» أيضاً، و «الإمارات»، «السعودية وقطر ومصر والبحرين والأردن ووو»، كلها دول عربية شقيقةٌ بالدم واللغة، من لم تكن من بينها ساهمت بأكملها في مأساتنا، فقد كانت حكومتها حاضرةً بما فيه الكفاية.

«أمريكا، فرنسا، ألمانيا»، «الأمم المتحدة والمنظمات الدولية»، لا أعلم ماذا أجيبُ، كل حرفٍ مني يخضع لحساباتٍ وتأويلاتٍ جمّة، وعدم الإجابة له ثمنه عنده أيضاً، وإن اكتفيت بإلقاء اللوم على روسيا وإيران وحدهما كونه يعرفهما، وكذبت عليه لن يصدقني في أي أمر بعد أن يعلم الحقيقة، فماذا عسايَ أفعل؟.

دوّامةٌ كبيرةٌ أصبحت تعصف في رأسي الذي أحسست بأنه يكاد ينفجر، بينما ينظر إليّ هو نظرةً غريبةً لم أرها في حياتي، ملؤها الحقد والغلّ والفضول والخذلان، ويُلحُّ في طلب الإجابة على الفور.

يا بني لن تفهم ما سأخبرك به لو أخبرتك، غداً ستكبر وتقرأ التاريخ -إن لم يُحرّف (قلتها في نفسي)- وستعلم كل ما تريد الآن أن تعرفه، وستفهم.

لن أنتظر غداً، ولا أريد أن أقرأ التاريخ، أريد أن أعلم الآن وأفهم، الآن.. الآن ولن أنتظر حتى أكبر، لقد صرت كبيراً!.
-يا ولدي هناك حكومات تختلف عن شعوبها.
-ماذا يعني؟
يعني يا بني أن هناك بعض الحكومات كان لها أخطاء، بينما تختلف مواقف شعوبها، قاطعني: لا أفهم ذلك، فقط أريد أسماء، من وقف ضدنا؟
لا أملك لك أسماء، لا أعلم -هم كُثُرٌ ولا حصر لهم يا ولدي فماذا أخبرك-، قلتها في قلبي وعدت إلى روسيا وإيران شاركتا حكومةً وشعباً منذ بداية الثورة وكفى، حاولت التهرب بإطعام أخيه الصغير ذو اليد المكسورة، والمراقب لأخيه ولي، والمُصغي بتركيزٍ وإنصاتٍ دون أن يتفوّه بأي حرفٍ عما يجهله، ربما هو الآخر يريد أن يفهم، لكنه يمتلك القدرة على الترجمة وإيصال ما بداخله عبر الكثير من القصص اليومية التي يؤلفها ويسردها كل يوم، ويكون بشار غالباً بطلها، والمقتول في كل قصةٍ بطريقة.

سامحني يا ولدي، بل سامحاني، خرجت بكما كي أنقذكما من هذا الحقد والمأساوية، لكنني لم أنجح بذلك، قد يكون ذنبي وقد يكون ذنب الظروف المحيطة.

سامحني يا بني، لا أملك لك إجابة، ولا لفضولك إرضاءً، ولا لحقدك وغضبك معالجة، ولا لخذلانك تبديداً، فذات الخذلان والبؤس والانكسار الذي رأيته في ملامح وجهك وأكثر في قلبي وعيوني وروحي، ولا سبيل بل كل يومٍ يتفاقم!.

SNP زيتون عضو الشبكة السورية للإعلام المطبوع